(٩٧)

"اغتراب"

بعدما لم يجد فرصة فى بلاده للعيش الكريم هو وأسرته، لم يكن أمامه سوى العمل فى دولة نفطية يساعده عمله فيها أن يُكوّن نفسه ماليًا، ويكوّن لأسرته ما يغنيهم عن سؤال اللئيم، أو الرجوع لحال الفقر الأليم. ولم ينس فى نفس الوقت أن يحجز مكانه فى الوظيفة الحكومية فى بلده، ليظل منتظرًا إياه لحين انتهائه من مهمته القتالية فى بلاد الغربة، فيضمن بذلك معاشًا ملائمًا وتأمينًا قد يحتاجه بعد عودته واستقراره فى بلده العزيز، الذى يرغب فى أن يُدفَن فى ترابه الغالى بعد رحيله عن الدنيا.

لذا سافر واغترب، وأمضى جُل شبابه فى بلدٍ شقيق لو كان قد عمل فى غيره من البلاد الأجنبية غير الشقيقة، والتى يُطلَق عليها البلاد الغربية، لأصبح واحدًا من مواطنيها لا رعاياها. ومع الاغتراب يحدث الاستغراب بغض النظر عن غربية البلد أو شرقيتها. وفى الغربة يعتاد المرء على البُعد، ويألف البعاد، لا بجسده فقط بل بكيانه كله، فتتجمد مشاعره، وتقسو ملامحه، وتتغير قسمات وجهه، فينسى الفقراء فى بلده، ويتجاهل ما كان يشاركهم فيه قبل فراره مما يعانونه من يأس محيط، وإحباطٍ جم، ومهانة تفرضها الحاجة ويدفع إليها العِوز.

وما أن عاد المغترب من سفره الطويل ليستقر فى بلده العليل، حتى اكتشف مَن حوله أن غناه قد أغناه، واستغنى به عن كل شيء، وأنه قد فرَّمن فقرالمال إلى افتقارالنفس، ومن ذل الحاجة إلى مذلة الكِبْر، ومن ضيق الحال إلى ضيق الصدر، ومن الاكتفاء بالقليل إلى الإلحاح فى الحصول على المزيد. ومع خروج الملايين مطالِبة بكل ما هو مشروعٍ لهم، ومخلصٍ من عللهم، تجده هناك واقفًا بعيداً، ومتجهمًا من تهور العبيد، لمجرد تفكيرهم فى التخلص من أغلال القهرالتليد.